بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة بتاريخ ٢١ من ربيع الآخر ١٤٣٥هـ / الموافق ٢/٢١ /٢٠١٤م

العلم والعقل

أولاً : العناصر:

١- منزلة العلم والعلماء في الإسلام.
٢- دعوة الإسلام إلى التفكُّرِ وإعمال العقل والإبداع والابتكار.
٣- العلم والأخلاق.
٤- أدب طالب العلم .
٥- طلاب العلم يبنون ولا يهدمون.
٦- خطورة الفتوى بدون علم .
٧- العلم الذي نريده.

ثانيًا : الأدلة:

الأدلة من القرآن :

١- قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].
٢- وقال تعالى : {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١].
٣- وقال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران ١٩٠ – ١٩١].
٤- وقال تعالى : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤].

٥- وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر: ٢٧-٢٨].

٦- وقال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } [الروم: ٢٢].

٧- وقال تعالى :{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق ١ – ٥]

٨- وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة: ١٧٠].

٩- وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤].

١٠- قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في شأن طلب العلم، قال تعالى: { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} (الكهف٦٦)

<u>الأدلة من السنة :</u>

١- عن أبي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)(سنن أبي داود).

٢- وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ، وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ) (سنن ابن ماجه).

٣- وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ)(رواه الحاكم في المستدرك).

٤- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ

اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)(سنن الترمذي).

٥- وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ (رضي الله عنهما) قَالَ قَالَتْ لِي عَائِشَةُ (رضي الله عنها): يَا ابْنَ أُخْتِي بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو مَارٌّ بِنَا إِلَى الْحَجِّ فَالْقَهُ فَسَائِلْهُ فَإِنَّهُ قَدْ حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺعِلْمًا كَثِيرًا – قَالَ – فَلَقِيتُهُ فَسَاءَلْتُهُ عَنْ أَشْيَاءَ يَذْكُرُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ عُرْوَةُ: فَكَانَ فِيمَا ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالاً يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ »[صحيح مسلم]

٦- وعن أَبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ﵁ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِى مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[سنن الترمذي]

ثالثًا: الموضوع :

مما لا شك فيه أن العلم له المكانة العالية في الإسلام ؛ لأن العلم حياة القلوب ونور الأبصار، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار ، وبه يطاع الله ﷻ، وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يُمَجَّد وبه توصل الأرحام ، وبه ترفع الأمم أعلى الدرجات ، فالإسلام دين العلم ، لا يُعرَفُ دينٌ مثلُه أشاد بالعلم وحثَّ عليه ، ورغب في طلبه ، ونوَّه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبين فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة ، وحضَّ على التعلم والتعليم ، وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي على قلب رسول الله ﷺ أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة وهي مفتاح العلم ، ونوهت بالقلم وهو أداة نقل العلم ، وذلك في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١- ٥]. فهذه أول صيحة تسمو بقدر القلم، وتنوّه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأُمِّيّة الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل إنسان عظيم أن يقرأ وأن يتعلَّم ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مكانة العلم في الإسلام لا تدانيها مكانة ، كما قال ربنا في كتابه : {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر:٩].

ولقد عني الإسلام أعظم العناية بالعلم، وحث أتباعه على طلبه، والبحث والتفكير في كل ميدان من ميادين المعرفة، وكل مجال من مجالات الحياة ، والقرآن الكريم كتاب العلماء الذين أوتوا العلم، وفي هذا يقول العليم الحكيم ﷻ :{ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [العنكبوت:٤٩].

ولقد أوضح رسول الله ﷺ مكانة العلم وفضيلة طلبه في حديث يدفع كل من قرأه بتدبر إلى المسارعة في طلب العلم ، وإفناء العمر في سبيل تحصيله ، فقال:(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَ رَّثُـو ا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)(سنن أبي داود)، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(يَا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ، وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ)(سنن ابن ماجه).

إن التعلُّم والتعليم رُوح الإسلام، لا بقاء لجوهره ولا كفالة لمستقبله إلاَّ بهما، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:(الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الأَجْرِ)[رواه ابن ماجه]. فطبيعة الإسلام تفرض على الأمة المسلمة أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين ، فإن قيمة العلم في الإسلام كقيمة الحياة بالنسبة للإنسان.

وكذلك أعلى القرآن الكريم من شأن العلم، فعبَّر عنه بالسلطان ، فقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا }[غافر:٣٥]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ }[غافر:٥٦].

ورحم الله سيدنا عليًّا رضي الله عنه حين قال:(العلم خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق).

فالعلم ضرورة مُلِحَّة، وحاجة ماسَّة ، عليها تتوقف سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ومن هنا كان طلب العلم فريضةً ، كما روى ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ).

إن الإسلام قد رفع منازل العلماء وقدَّر جهودَهم ، وسما بدرجاتهم حتى قرَنَهم الحق سبحانه بنفسه وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته، قال تعالى:{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران:١٨]. كما أشاد الله عز وجل بمكانة العلماء ورفع من شأنهم ، وبين أنهم أكثر الناس خشية لله بما أدركوا من آثار قُدرته وعظمته، فقال ﷻ بعد أن لفَت الأنظار إلى نِعمه وآياته: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر: ٢٧-٢٨].

وقال تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل:١٠،١١].

وللعلماء مكانة عظيمة حفظها لهم الشرع لعظم قدرهم في الأمة ، فهم ورثة الأنبياء وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)(سنن الترمذي).

ومن هذين الحديثين الشريفين وغيرهما تتضح مكانة العلماء ومنزلتهم ، وصدق الله العظيم حيث قال:{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة:١١].

وإذا كان الإسلام دين العلم فهو أيضًا دين العقل والفكر، يدعو إلى التفكر وإعمال العقل والإبداع والابتكار، فالعقل سر التكريم والتشريف الإلهي للإنسان ، فقد ميَّزه الله به ، وبه شرفه وفضله على غيره من الكائنات ، وعلى أساسه كان التكليف لبني البشر بعبادة الله تعالى وحده ، والإيمان بما أنزل من كتب وما أرسل من رسل.

جدير بالذكر أن حفظ العقل يعد أحد مقاصد الشريعة الإسلامية ، وذلك باعتباره واحدًا من الكليات الخمس التي اتفقت كافة الشرائع والأديان على حفظها والمحافظة عليها ، ومن ثمَّ فإن الإسلام حافظ على العقل ، وحرم الاعتداء عليه بشئ يعطله عن إدراك منافعه ، ومن ذلك – على سبيل المثال – أنه حرم شرب المسكرات وكل ما يفسد العقل ، قال تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[المائدة :٩٠].ولا غرابة في اهتمام القرآن الكريم بالعقل والعناية به ، لأنه هبة من الله عز وجل.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض بأساليب مختلفة ، ليؤكد على مكانة العقل والعلم ، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرته، فبالعلم يَقف الإنسان على الحقائق، وتَزول عنه غِشاوة الجهل، ويُحرَّر من رِقِّ الأوهام والخُرافات ، وبذلك كان الإسلام دينَ الفكر، ودينَ العقل، ودينَ العلم.

وقد دعانا ربنا – سبحانه وتعالى– إلى استخدام نعمة العقل في التفكر والتأمل في ظواهر الكون للوقوف على عظمته سبحانه وتعالى ووحدانيته ، قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٦٤]. وقال تعالى:{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } [الروم: ٢٢].

والمتتبع للبيان القرآني يلاحظ باستمرار الحض على التعقل والتفكر بصيغ متعددة في صور مترادفة ، نحو {لعلكم تعقلون} أو{ أفلا تعقلون} أو{ لقوم يعقلون } أو{ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أو{لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} وغير ذلك في السياق القرآني ، لتؤكد النهج القرآني الفريد في الدعوة إلى الإيمان وقيامه على احترام العقل ، والدعوة إلى الإبداع والابتكار.

ولقد مدح الله سبحانه وتعالى الذين يستخدمون عقولهم في التفكير وذمَّ غيرهم حيث قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[الأنفال:٢٢]. فمن تكريم الإسلام للعقل: نعيُه على المقلدين الذين لا يُعمِلون أذهانهم ، وتحذيره من التقليد الأعمى والتعصب الأصم ، فقال تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} [البقرة:١٧٠] ، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤]. كما رفض الرسول ﷺ للمسلم أن يكون إمَّعة – يعني تابعًا في الخير والشر ، أو فيما ينفع أو يضر – فعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا)(سنن الترمذي).

كما أمرنا عز وجل باستخدام العقل وتقويته بالعلم النافع الذي يُذهِب عن صاحبه الجهل وينير له الطريق ، فالجهل داء خطير ومرض عضال، إذا أصاب العبد كان صاحبه على خطر عظيم، وعلى شفير هاوية، وإن لم يتدارك نفسه ويُنَوِّرْ عقله بالعلم النافع كان صاحبه في عداد الهلكى والموتى الأحياء، فالجاهل طريقه مظلم ومستقبله غامض ، ولا يرجى من ورائه أمل، وقد يقرأ ويكتب

ويفهم الخطاب، وربما يحسن اللغات الأجنبية الأخرى، لكنه جاهل في سلوكياته بما لا يتفق مع أخلاق الإسلام وأدب النبي ﷺ، وهذا هو الجهل الذي ذمه الله تعالى في القرآن ، فقال تعالى:{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩] لذلك نجده منبوذًا في المجتمع الصالح ، عن أَبِي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِى مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[سنن الترمذي]، ومن هنا يتضح لنا قيمة العلم النافع المبني على خلق قويم ، فالعلم سر نهضة الأمم ، والأخلاق مقياس تطورها وتقدمها ورفعة شأنها، والعلم وحده لا يصنع الإنسان الكامل السعيد ، إن لم يرافقه أخلاق وقيم ، وصدق الشاعر حين قال :

لا تَحْسَبنَّ العِلمَ يَنفعُ وَحدَهُ *** ما لَمْ يُتَوَّجْ ربُّهُ بِخَلاقِ

ومن ثم فالعلم وحده لا يصنع السعادة للبشرية ، إن لم يرافقه أخلاق وقيم، ولن تقوم نهضة لأمتنا إلا بهما معًا، لتقدم كل الخير للبشرية، التي خُلقت لتعبد ربها وتسعد وتهنأ، وتعيش في طمأنينة.

فعندما ربطت الأمة بين العلم والأخلاق ، عاشت في عزة ورفعة بين الأمم ، وحيث كان الخلق والعلم توأمين، كان الرقي ، وكان الازدهار، ولم يعرف في التاريخ مثل حضارة أمتنا العظيمة ، التي كان أساسها العلم والأخلاق الفاضلة المستقاة من الإسلام ، وصدق النبي الكريم ﷺ حيث قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)[رواه الحاكم في المستدرك].

جدير بالذكر أن العلم النافع هو العلم الذي يقود صاحبه إلى الفضائل ، ويحمله على التحلي بالأخلاق العالية ، ويوجهها ويرشّدها ويحافظ عليها ، فمن ثمرات العلم النافع أنه يساعد على البناء والتعمير ، وليس الهدم والتخريب ، يساعد في الإصلاح لا الإفساد ، فعلى كل طالب علم أن يتخلق بأخلاق الإسلام ، وأن يتأدب بآداب العلماء ، وأن يسخر العلم الذي تعلمه لخدمة البشرية وبناء القيم في النفوس ، حتى لا تنتشر الفوضى ويعم الفساد، فمُهِمَّةُ طالب العلم الابتكار والإبداع والتفوق، لا الهدم والتخريب والإفساد، فالعلم يدفع صاحبه إلى البناء لا الهدم، وإلى استخدام العقل لا إلى إهماله ولا إلى تعطيله.

ولابد لطالب العلم من آداب يجب أن يتحلى بها ، نتعلمها مما فعله سيدنا موسى كليم الله (عليه السلام) – وهو نبي مرسل من أولي العزم من الرسل – مع عبدٍ من عباد الله يتعلم منه، كما حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا } (الكهف٦٦ – ٦٩)

ولقد كان في الأمة الإسلامية نماذج من العلماء الذين أثْرُوا الحياة بعلمهم وأخلاقهم ، وإعمال فكرهم ، منهم على سبيل المثال: عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) حبر الأمة وترجمان القرآن، عُرِفَ بشيخ المفسرين ، وعبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) من السبعة المكثرين لرواية الحديث، ومعاذ بن جبل حامل لواء العلماء يوم القيامة ، وأتى من بعدهم أئمة أعلام ملؤوا الأرض علمًا منهم : ابن النفيس الدمشقي الذي نبغ في الطب وأول من اكتشف الدورة الدموية ، وأبو بكر الرازي ، وابن سينا، وغيرهم كثير ممن أفادوا البشرية بعلمهم وكانوا مثلًا يحتذى بهم ، فالواجب على شباب الأمة أن يحذوا حذوهم وأن ينهلوا من العلم حتى ينهضوا بالأمة، على أن من الخطورة بمكان أن يتصدى الإنسان للفتوى بدون علم، فيضل الناس، يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِى فِى النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالاً يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ »[صحيح مسلم]

ومن هذا يتضح أن الإسلام يدعو إلى العلم ويُحرر العقل ، ويحثّ على النظر في الكون، ويُنشِئ العقلية العلمية التي تبدع وتبتكر، ويرفض العقلية الجاهلة المستسلمة لكل ما يتوارثه الناس، دون مناقشة له ، فالأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تنهض إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تتبوأ مكان الصدارة إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تقضي على التخلف والأمراض والفقر إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تقود غيرها إلا بالعلم ، فالعلم هو الأساس لوحدتها ، هو الأساس لفلاحها أفرادًا وجماعات ، فالعلم مأمور به قبل العمل ، لأنه أساس له قال الله تعالى : {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩].

على أن العلم الذي نريده هو العلم الذي يبني ولا يهدم، وليس العلم الشرعي فحسب، إنما هو العلم الذي يأخذ بأيدينا إلى التقدم، في جميع مجالات الحياة، من الطب والهندسة، والصيدلة، والكيمياء، والفيزياء، وفي مجال النقل، والتسليح، والزراعة، والصناعة، والتغذية، ولذا قال نبينا ﷺ : { مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ} واستخدم كلمة (علمًا) نكرة لتفيد العموم والشمول لكل ألوان العلم النافع.